

# يوسف زيدان

## عزازيل رواية

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٤٩٧٤/٢٠٠٧

ISBN 978-977-2282-0

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبيه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

دار الشروق

## الرَّقُّ التَّاسِعُ

### شَقِيقَةُ يَسُوعَ

أتذكّرُ جيدًا.. مشيتي المتلصّصة نحو بوابة المسرح الكبير، وخجلى من ملابسى الرثة وسط المتأنقين. مع أن الرهبة تعلّمتنا عدم الاكتراث إلى الرث، أو غير الرث من الثياب! أشارلى حُرّاس البوابة إلى مكان المحاضرة، فدخلتُ مع الداخلين. كانت قاعة كبيرة كائنة في الجهة الغربية من المسرح، وليست جزءاً منه، وإنما تحوطها حديقة واحدة. جمهورُ المحاضرة كبيرٌ، وفيه نساء! كانت المرّة الأولى، والوحيدة، التى أحضر فيها درسًا تلقيه امرأةٌ، وتحضره النساء.. كل ما فى الإسكندرية عجيبٌ، ومختلفٌ.

الداخلون إلى القاعة كلهم يتكلمون اليونانية، وكلهم درسوا الفلسفة. ظهر لى ذلك من همماتهم، ونقاشاتهم خفيضة الصوت، قبل بدء المحاضرة. كان كلامهم مليئًا بأسماء قدماء الفلاسفة، لم يجر على لسانهم أى اسم لواحدٍ من القديسين أو الشهداء. فكأنهم يعيشون فى عالم غير العالم. ظننتُ أولاً أننى سأسمع محاضرةً وثنيةً جدًّا، ثم عرفتُ أن الرياضيات لا شأن لها بالوثنية، ولا بالإيمان.

كانت الساعة الشمسية التى بمدخل القاعة، يكاد ظلُّ عمودها يلامس علامة العاشرة صباحًا، الناسُ جاءوا مبكرين. بقيتُ بينهم ساعةً منطويًا على ذاتى، وكانوا منهمكين فى أحاديثهم الخافتة وضحكاتهم الرقيقة.. ملابسهم نظيفة، ووجوههم تكسوها آثار النعمة الدنيوية الزائلة. جلستُ قريبًا من الباب، على طرف الثالثة من الأرائك الخشبية المصفوفة. من غلبة حرجى وغربتى بين الحاضرين، كنتُ متصلبًا وهشًا كالخشب القديم.

قبل دخول هياتيا بلحظات، التفت نحوى رجلٌ بدينٌ كان يجلس على يمينى بالصف الثانى. حيّانى بابتسامةٍ، فحيّيته بابتسامةٍ وجلةٍ؛ إذ لا ردّ على الابتسام، إلا بالابتسام! كاد الرجل البدين يفاتحنى الكلام، لولا أن الأبواق صاحتُ مخبرةً بمجئى حاكم المدينة أورستوس الذى توسّط الصف، وانتشرت حاشيته على جانبيه، فامتلاً الصّف الأول. دخلت هياتيا الصالة الفسيحة، فوقف لها الجميع بمن فيهم الرجال! منعنى وقوفهم المفاجئ من رؤيتها تدخل. لما حيّتهم وجلسوا، رأيتها ترتقى الدرجتين إلى المنصة، وتقف كالحلم أمام الجمهور الذى انتظم جلوسه على الأرائك.. تهيّأتُ هى للكلام، فسكن الجميع كأنهم تماثيل طريق الكباش الطويل.

من قبل أن تنطق الأستاذة بشئ، ظل قلبى يرتجف ويزداد خفقانه، حتى خشيتُ أن يسمع الجالسون حولى دقاته المضطربة.. هياتيا امرأةٌ وقورٌ وجميلة، بل هى جميلة جدًّا. أو لعلها أجمل امرأة فى الكون. كان عُمرها فى حدود الأربعين، وكان أنفها جميلًا جدًّا وفمها، وصوتها، وشعرها، وعيناها.. كل ما فيها، كان أبهى من كل ما فيها. ولما تكلمت زاد بهاؤها ألقًا. عرفتُ بعدما رأيتها بشهور، أنها اشتغلت بالعلم من صغرها، على يد أبيها الرياضى الشهير ثيون، وعرفتُ أنها ساعدته، وهى بعدُ مراهقة،

فى شروحه التى دوّنها على أعمال كلوديوس بطليموس صاحب كتاب  
الجغرافيا، والكتاب الكبير فى الفلك (١).

هياتيا.. أكاد إذ أكتب اسمها الآن، أراها أمامى وقد وقفت على  
منصة الصالة الفسيحة، وكأنها كائنٌ سماوئى هبط إلى الأرض من الخيال  
الإلهى، ليبشّر الناس بخبر ربانى رحيم. كانت لهياتيا تلك الهيئة التى  
تخيّلتها دومًا ليسوع المسيح، جامعةً بين الرقة والجلال.. فى عينيها زرقّة  
خفيفة ورّمادية، وفيها شفافية. فى جبهتها اتساعٌ ونورٌ سماوئى، وفى ثوبها  
الهفهاف ووقفها، وقارٌّ يماثل ما يحفُّ بالآلهة من بهاء. من أى عنصر  
نورانى خلقت هذه المرأة؟.. كانت تختلف عن بقية الناس! فإن كان الإله  
خنوم هو الذى ينحت أجسام الناس، فمن أى صلصال طاهر نحتها، وبأى  
عطرٍ سماوئى سبّكها؟.. يا إلهى، إننى أُجذّف.



لم يطل صمّت هياتيا بعدما اعتلت المنصة، إلا ثوانٍ معدودات،  
رفعت بعدها عينيها نحو جمهورها الساكن، وراحت تقول ما ترجمته:  
أيها الأصدقاء، وصلتني الأيام الماضية من جزيرة رودس، رسائل فيها  
ملاحظات كثيرة وتقريرات، على ما ذكرته فى محاضراتى التى شرحتُ  
فيها كتاب الفاضل ديوفنطس فى حساب القيم العددية المجهولة. ونظرًا  
للتخصّص الشديد لهذا الموضوع، فسوف أوجّل المناقشة فيه إلى ما بعد  
هذه المحاضرة، حتى لا أثقل على غير الرياضيين من حضراتكم، مع أننى  
أؤمن بأن الفلسفة التى يؤدّ معظمكم أن تتحدّث فيها اليوم، لا يمكن أن

(١) فى هامش الرّق، كُتب بالعربية: هو يقصد كتاب المجسطى، وهو العمدة فى علم  
الفلك حتى يومنا هذا، رأيتُ منه نسخة يونانية قديمة، وعدة ترجمات عربية عليها  
حواشٍ كثيرة، فى كنيسةنا بالرها.

تستقيم إلا بالرياضيات. وتعلمون، أخواتى وإخوتى، أن أفلاطون العظيم  
كتب على باب مدرسته فى أثينا، الأكاديمية، عبارةً تقول: لا يدخل علينا  
إلا من درّس الهندسة!.. ومع ذلك، فسوف أتحدّث أولاً فى الفلسفة، ثم  
أتلو محاضرتى بجلسة نقاش للمسائل الرياضية الواردة فى كتاب الفاضل  
ديوفنطس الإسكندرانى، لمن أراد منكم متابعة الموضوع معى.

كنتُ أتابعها بنظرات لاهثة، وقد نظرتُ هى نحوى أثناء كلامها مرتين،  
فروّعتنى عيناها. كنتُ قد درستُ الفلسفة سنين فى أخميم غير أنى لم  
أسمع من غيرها، مثل هذا الذى قالته. كانت تشرح لنا بلغة يونانية راقية،  
كيف يمكن للعقل الإنسانى أن يستشفّ النظام الكامن فى الكون، وأن  
يصل بالفهم إلى معرفة جواهر الأشياء، وبالتالى يميّز أعراضها وصفاتها  
المتغيرة.. كان يجرى على لسانها عباراتٌ من مبادئ الفلسفة، عبارات  
طالما سمعتها من غيرها، لكنها نطقتُ بها وكأنها تفتح عقلى وتدسّها فيه.  
حتى المشهور من كلام الفيثاغوريين، مثل قولهم: العالم عددٌ ونغمٌ..  
شعرتُ من عمق إحساسها بالعبارة، ومن رهافة نطقها بها، أن الكائنات  
كلها إقاعاتٌ منظومة واحدة.. وعلى هذا النسق، فهمتُ من عباراتها مالم  
أفهمه قبلها من أهل الفلسفة.

قبل نهاية المحاضرة، خابلتنى فكرةٌ أن أبقي تابعا لهياتيا بقية عمرى،  
أو خادما يسير وراءها. وفكرتُ فى أننى لو عدتُ إلى أوكتافيا، واعتذرتُ  
إليها عن خداعى لها طيلة الأيام الثلاثة، فقد تسامحنى. سأتعلى لها بأننى  
خشيتُ أن أفقدها، فأثرتُ الصمت؛ لأننى ارتبكتُ، ولسوف تسامحنى  
أوكتافيا، وتقبلنى ثانية، فأعيش معها، وأنسى الأوهام التى تملؤنى وتسيّر  
خطاى إلى حيث لا أعلم.. سأتعرفُ إلى السيد الصقلى حين يأتى من  
سفره، وأعرف هياتيا عن قرب، وأشتغل بالطب حتى أنبغ فيه، وقد أجد  
علاجًا لمرض العاع.. أخذتني الأفكار، حتى شردت عن بقية المحاضرة.